

Opposites and their significance in the novel Trying to Live by Muhammad Zafzaf



Received: 29/05/2023; Accepted: 27/09/2023

* عبد الوحيد نویدی

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد تشرمان أهواز، أهواز، إيران.

الثنائيات الضدية ودلالاتها في رواية محاولة عيش لمحمد زفازف

الكلمات المفتاحية:

الرواية الجزائرية؛
محمد زفازف؛
محاولة عيش؛
الثنائيات الضدية.

ملخص

اعتنى العديد من الروائيين المعاصرين بالثنائيات الضدية إذ لا تكاد تخلو رواياتهم من هذه التقنية التي نجدها بشكل واضح عند الروائي الجزائري محمد زفازف لاسيما في روايته الموسومة بـ«محاولة عيش»، والتي عبّرت عن المهتمش داخل المجتمع المغربي من خلال مجتمع البراريك وتهدف هذه الدراسة إلى تبيين الثنائيات الضدية وأهميتها في تفعيل نص الرواية، وإضفاء حيوية ودورها في الإقناع والتأثير وإنتاج الدلالات المختلفة، معتمدة على المنهج الوصفي التحليلي. من أهم النتائج التي توصل إليها المقال أن السارد يعرّف القارئ بالمشاكل الموجودة في المجتمع المغربي وأن هناك شخصيات تحمل معاني استغلال وتسلط، وتسعى أن تستغل نفوذها من أجل فرض سيطرتها على سكان المدينة ورفضهم وتهميشهم كما أنه يتحدث عن هيمنة النسق الذكوري والقهر وقمع المرأة من طرف المجتمع والعائلة والعادات ويشير إلى بعض التقاليد التي يتقيد بها المجتمع المغربي مثل الخرافة واختيار الوالدين الزوجات لأبنائهما كما يتناول بعض مظاهر الحدائث التي تمثل في تصرفات غنو وبعض أعمالها.

Abstract

Many contemporary novelists have taken care of the opposite dichotomies, and their novels are not devoid of this technique. We find Muhammad Zafzaf, in his novel "Attempt to Live", expressing the marginalized within the Moroccan society through the society of the wilderness. One of the findings of the article is that the narrator introduces the reader to the problems that exist in Moroccan society and that there are personalities who bear the meanings of exploitation and domination, and seek to exploit their influence in order to impose their control on the population of the city and reject and marginalize them. It also talks about the domination of the masculine system and the oppression of women by society and the family and customs, and refers to some of the traditions that Moroccan society adheres to, such as superstition and parents choosing wives for their children.

Keywords:

the Algerian novel ;
Mohamed Zafzaf ;
trying to live ;
antagonistic dichotomies

* Corresponding author, e-mail: A.v.navid@scu.ac.ir

Doi:

1- مقدمة

يعرف المعجم الفلسفي الثنائيات بقوله «الثنائي من الأشياء ما كان ذا شقين، والثنائية هي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها...»¹ وهذه الثنائيات موجودة في كوننا وحاضرة في أنفسنا ومرتبطة بالحياة الإنسانية بشكل دائم. تعتبر فرضية الثنائية إحدى الموضوعات التي لطالما كانت موضوع اندهاش وتسؤل في مسيرة تاريخ الفكر البشري. والبشر يواجه دائماً ثنائية متضادين في الكون. مثل: الموت / الحياة، الخير / الشر، النور / الظلام، أسود / أبيض، ذكر / أنثى. يذهب البعض إلى أن هذه الثنائيات هي دائماً في صراع أبدي ويعتقدون أنها هي أصل الخلق لاستمرار الحياة.² وهكذا فالتقابل بين هذه الثنائيات الضدية «من الأسس التي يقوم عليها الوجود، فهو يملأ الحياة حولنا ويجعلها تستمر وتبقى ولولاه لفقدت معناها»³

ولعل من أهم الدراسات التي تبنت فكرة الثنائية الضدية دراسة العالم اللغوي فردينان دي سوسير؛ إذ أنصب جهده على دراسة التقابلات أو الثنائيات التي أقيمت في صرح الحقل اللغوي مثل ثنائية اللغة والكلام ومحوري التعاقب والتزامن⁴، وثنائية النموذج السياقي وثنائية الصوت والمعنى⁵

قد حظيت الثنائيات باهتمام كبير من قبل فلاذيمير بروب في دراسته بنية الحكاية الخرافية، وذلك عن طريق تحليل هذه الحكايات إلى سلسلة من الوظائف إذ «لاحظ أن عدداً كبيراً من الوظائف تشكل مزدوجات أو ثنائيات ضدية، أي أن لكل وظيفة تقريباً نقيضاً يمثل تجاوزاً أو حلاً لها فالتحريم يقابله الانتهاك وحس النقص يقابله إشباع النقص وهكذا إي أن الحكاية تنتظم على صعيد بنيتها انتظاماً ثنائياً ضدياً»⁶

وتابع ليفي شتراوس ما بناه فردينان دي سوسير من أفكار في حديثه عن الثنائيات الضدية حين سعي «إلى تفسير التحولات التي تحدث في الثقافة وفي الإدراك الفردي للواقع الاجتماعي، في محاولة ممنهجة للكشف عن معنى الاساطير...»⁷ عن طريق دراسة الثنائيات الضدية والتحولات في اللغة المنطوقة ويرى أن علم اللغة البنيوي سيتحول عن دراسة ظواهر لغوية واعية إلى بنيتها اللاواعية كما تتجسد في الفكر الاسطوري⁸

وقد تأثر النقاد العرب المعاصرون بأراء وأفكار البنيوية في حديثها عن الثنائيات الضدية بهدف «الوصول إلى محاولة فهم المستويات المتعددة للأعمال الأدبية، ودراسة علائقها، والعناصر المهيمنة على غيرها، وكيفية تولدها ثم كيفية أدائها لوظائفها الجمالية»⁹ في النص الأدبي. ومن أهم المؤلفات في العربية لمصطلح الثنائيات الضدية دراسة كمال أبو ديب في كتابه «جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر»، وكتابه «الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي»، إذ رأى أن «دراسة عدد كبير من النماذج في الشعر الجاهلي تكشف عن الدور الأساسي الذي يلعبه التنظيم الثنائي الضدي في تشكيل بنية النص الشعري، بالإشارة إلى أن حركة الاندثار والعفاء في الأطلال دائماً تولد حركة مضادة لها بحيث تشكل الحركات ثنائية ضدية شرائحية»¹⁰ وهكذا إن الثنائيات هي أساس التحليل البنيوي النقدي للنصوص الأدبية، ويؤدي الكشف عنها إلى الحصول على البنية المتحركة في النص. لأن الأشياء لا تُعرف فقط في ضوء معرفة خصائصها الأساسية، وإنما يتم ذلك في ضوء تمايزها. فالكلمة ليس لها معنى في ذاتها، بل معناها يكمن في وجود نقيضها، مما جعل سوسير ينظر إلى اللغة على أنها "نظام من الاختلافات".¹¹

وهذا التصور انطلقت منه البنيوية، إذ أخذت في ضوئه تنظر إلى العالم على أنه «مجموعة من الثنائيات المتشابكة والمتقابلة، تنعكس على شبكة العلاقات، فتحيلها إلى مجموعة من الثنائيات الخالصة»¹² وبناء على ذلك، فتعد الثنائيات من أبرز الآليات الإجرائية لمقاربة النصوص، وبيان مدى استثمارها وتطبيقها بالنقد المعاصر على مختلف النصوص الشعرية والنثرية. فهناك مساحة غير قليلة من خيوط الصراع الفكري والنفسي في الأعمال الأدبية الحديثة في فنون الشعر والقصة والمسرحية تقوم على تقابل المواقف والأفكار والخطط، أو التضاد بين الداخل والخارج¹³

وبهذا يتضح مفهوم الثنائيات الضدية عبر هذه المفاهيم السابقة التي تعنى بالتقابل والصراع بين معنى وآخر؛ لتتولد بعد ذلك العلاقات ذات الدلالات المتولدة في عناصر السرد- الروائي، ولكن في حدود ما يتيحها النص، وما تقوله الدلالة الروائية، وفي ضوء الحدود الدنيا لمفهوم الإبداع والجنس الأدبي. في هذا الدراسة يريد الباحث دراسة الثنائيات الضدية في رواية محاولة عيش محاولة عيش؟ كيف أسهمت الثنائيات الضدية في بناء الدلالة للخطاب الروائي؟

2- خلفية البحث

هناك مقالات وأبحاث عن محمد زفزاف ورواية "محاولة عيش" أهمها: رسالة ماجستير «بنية الشخصية في رواية "محاولة عيش" لمحمد زفزاف». لغربي نادية وحريزي صباح. نوقشت هذه الرسالة بجامعة محمد بوضياف بالمسيمة سنة 2017م. كما هو واضح من العنوان ركزت الرسالة على رصد الشخصية الرئيسية والثانوية والجاهزة والنامية.

رسالة ماجستير « البنية السوسولوجية في الرواية المغربية محاولة عيش لمحمد زفزاف أنموذجاً » لصفية بوشريط وفاطمة الزهرة عبادي. جامعة الشهيد حمّ لخضر بالوادي سنة 2018. تناول البحث دراسة عامة حول بنية الرواية، ومختلف الاتجاهات والقضايا التي تناولتها.

رسالة ماجستير « الواقعية الاجتماعية في الرواية المغربية المعاصرة: محاولة عيش لمحمد زفزاف أنموذجاً » لحويشة أمال وبودربالة أحلام. جامعة محمد الصديق بن يحيى سنة 2019م. درست الباحثتان عناصر الواقعية في رواية محاولة عيش.

مقالة «رؤية العوالم المهمشة في رواية محاولة عيش لمحمد زفزاف. لسعيد بومعزة. سنة 2011م. تسعى هذه الدراسة إلى فهم العلائقية التي تربط محكي رواية محاولة عيش بمفهوم رؤية العالم المجسدة عبر مسارات فنية وتيمية وخطابية.

مقالة «النسق السردي بين هامش اذات ومركزية الآخر: رواية المرأة والوردة لمحمد زفزاف أنموذجاً» لهجيرة خالدي ومليكة بن بوزة. سنة 2019م. درست الباحثتان ميفية تنثّل طورة الذات مقابلاً لصورة الآخر المغاير ثقافياً وتأتي كل منهما ضمن موقع الهامش والمركز.

كما نرى، لم يتناول أي من الأبحاث التي أجريت حول محمد زفزاف وأعماله موضوع الثنائيات الضدية في رواية محاولة عيش.

3- ملخص الرواية

الرواية جاءت في اثني عشر فصلاً: الفصل الأول يتحدث عن معاناة حميد في الميناء، والفصل الثاني عن حميد ورئيسه الجديد، والفصل الثالث عن حالة حميد بعد أن صار يعول عائلته، والفصل الرابع عن جولات حميد الليلية في الملاهي والبار، والفصل الخامس عن حكاية حميد واليهودية صاحبة المطعم، والفصل السادس عن حميد وبيع الصحف في مقهى الأركاد، والفصل السابع عن بناء الأم براكه جديدة لحميد، والفصل الثامن عن رشوة المقدم حتى لا يهدم البرّاكة، والفصل التاسع عن تفكير الأم في تزويج حميد، والفصل العاشر عن تعرف حميد على غنو، والفصل الحادي عشر عن شك الأم في تصرفات حميد الجديدة، والفصل الثاني عشر عن زواج حميد.

يتناول السارد في روايته هذه معاناة الطبقة العاملة في بلاده ويروي من خلالها قصة البطل حميد الذي اضطر لمغادرة منزله في سن السادسة عشرة بسبب الفقر والدخول في عمل بيع الجرائد، ونظراً لسنه ووظيفته يتعرض كثيراً لمضايقات سواء من طرف أبيه وأمه، أو من طرف أعوان الشرطة، وصاحب شركة التوزيع وحراس السفينة. يتجول حميد في حانات المدينة التي يرتادها الجنود الأمريكيون ويحدثون الفوضى من خلال استغلال فقر الفتيات اللاتي يأتين من القرى المجاورة بحثاً عن عمل. أصرت الأم على والده أن يبني لها براكه في الفناء. بعد ذلك تقرر أمه أن تزوجه من إحدى بنات البراريك "فيطونة" السمينية التي كانت تغمز برجلها اليسرى. لم يعترض حميد على هذا الزواج رغم تعرفه على "غنو" التي كان ينام في بيتها بعض الليالي. زف حميد إلى زوجته "فيطونة" تحت زغاريد النساء وهتاف أصدقائه، لكن عدم عذرية "فيطونة" جعل حميدا يتركها ويتجه نحو غنو.

وقد حاول الروائي من خلال هذا التوظيف أن يعري الواقع المغربي ويفضح الممارسات الرسمية، ويدين عمالة الأطفال، لهذا نجده يركز كثيراً على تصوير مستوى الوعي لدى حميد الذي تميز بالتحول، فحميد داخل الحيز الأسري، ليس هو خارج هذا الحيز؛ لبيتس مجال الفضح والإدانة؛ ليطال الأب والأم، فمن خلال شخصية حميد استطاع السارد أن يصور العلاقات الاجتماعية المعقدة التي تحكم مجموعات اجتماعية مخصوصة تعيش واقعا مزرياً، كالفقر والعوز والحرمان. وما يقال عن حميد يقال عن غنو الفتاة الريفية التي هربت من بيت أهلها بعد ارتكابها فاحشة الزنا مع ولد الديس، لتجد نفسها فريسة ذئاب بشرية، وهكذا تحولت إلى مومس تمارس البغاء لتعيش، وقد ازداد - في تلك الفترة - حضور الفتاة الريفية داخل المدن المغربية؛ إما للعمل خادماً في البيوت، أو في أوكار الرذيلة، وقد عالج السارد حضور المرأة في الرواية بطريقة أظهرت العديد من مساوئهن، فكان حضور أم حميد ضد رغبة ابنها في عديد القضايا، منها قضية الشغل والروح، حتى وإن كانت متمسكة بزمام أمور بيتها، إلا أن الجانب التعليمي لعب دوراً في هدم مستقبل ابنها - ولو بطريقة غير واعية - فما يهملها هو تحصيل قوت اليوم، بغض النظر عن قضايا أخرى كالتعليم، والصحة وغيرها... حتى و أن كان حضور بعض الشخصيات الحكائية ثانوية في الرواية على غرار الأدب والأم وغنو والشرطة إلا أنها حاولت توسيع رقعة الفضح والإدانة التي مارسها الروائي ضد صنّاع القرار في المغرب الذي عاثوا فيها ظلماً وفساداً¹⁴

4- الثنائيات الموجودة في الرواية

الرواية هذه تبنى على الثنائيات. يمكن رؤية هذه الثنائيات في الأمور التالية:

1-4 الثنائية بين الأبيض والأسود

يعد التقابل اللوني بين اللونين الأبيض والأسود من أكثر الألوان كثافة حيث يكسب كل منهما قيمته اللونية. 15 هذه الثنائية يمكن رؤيتها في الصفحة الأولى من الرواية. وحاول السارد أن يشير إلى التناقض بين مجموعات الأسود والأبيض منذ البداية، وبهذه الطريقة ينوي المؤلف الإشارة إلى إحدى المشاكل الموجودة في المجتمع المغربي حيث يخبر في مفتتح الرواية عن سواد الرجل السينغالي وبيض المسلمين الأثرياء: «لم يكن يعرف للرجل اسماً، إلا أنه سينغالي أسود، الوحيد الذي لا يشرب في الباخرة ولا يأكل لحم الخنزير. البخار الوحيد الذي يصلي. كان البحارة الآخرون يتندرون به ويضحكون منه. لكن حميد كان يحبه. وبالرغم من سواده فهو مسلم حقيقي. أحسن من بعض المسلمين البيض الأثرياء الذين يعرفهم في المدينة. إنهم قساة. لا يشترون جرائده. فقط يشتمونه عندما يدخل المقهى أو يعرض عليهم صحفه»¹⁶

السينغالي في هذا النص هو رمز لجميع أولئك الذين لديهم بشرة سوداء أكثر من إشارته إلى شخص معين. والسارد هنا أشار إلى اللونين الأسود والأبيض لكي يعبر عن أحاسيسه وما يدور بداخله من مشاعر وعواطفه تجاه هذه الظاهرة السيئة، واستخدامه لهذين اللونين يعني الإفصاح عما يحمله من دلالات نفسية واجتماعية ودينية. يتحدث حميد هنا عن بعض خصائص السينغالي الأسود مشيراً إلى أنه ليس هناك أحد في مجتمعه يهتم بهذه الخصائص النبيلة مثل (عدم شرب الخمر - عدم أكل اللحم - إقامة الصلاة، الإسلام الحقيقي)، لا تؤخذ في الاعتبار مشاعر السود وخصائصهم الإنسانية والأخلاقية، حتى أنهم يتعرضون للسخرية والاستهزاء من قبل الآخرين بسبب لون بشرتهم. من خلال المقارنة بين السينغالي الأسود والأثرياء البيض والإشارة إلى موقع كل منهم في المجتمع، يتحدث ضمناً عن وجود هذا النوع من التمييز في مجتمعه. وهكذا إن الجمع بين طرفي الثنائية الضدية في هذه العبارات يوئد مسافة من التوتر يتولد عنها حركة ديناميّة فاعلة، ولهذه الثنائية أهمية كبرى في إيجاد شبكة علاقات تتنامى فيها الأنساق المتضادة.

2-4 الثنائية الطبقيّة

الرواية هذه مرآة للمجتمع المغربي الذي يواجه التخلف والتسلط. هناك بعض الشخصيات يمكن أن تكون ممثلة للطبقة العليا مثل الجنود الأمريكيين وحراس الميناء ورجال الشرطة والسي ادريس وهي شخصيات تحمل في دلالتها ما تحمله من معاني استغلال وتسلط، وتسعى أن تستغل نفوذها من أجل فرض سيطرتها وجبروتها على سكان المدينة. يتحدث الراوي عن سي ادريس الذي كان يمتلك زمام السلطة بحكم انتمائه إلى الطبقة العليا: «كان الرئيس يتحدث إليه [حميد] بصوت جاف وغير مسموع، سأله عن علاقته بالضواوي... ثم تأمله من خلف نظارتيه السميكتين، كان في نظراته احتقار للعالم، جفاف، قسوة... إن الحثالة من أمثالك يكونون قد تعلموا هذه الأشياء... هي الطريقة التي يتحدث بها سي ادريس بل أكثر من هذا، أحياناً يتلفظ بكلمات منحطة جداً»¹⁷

هذه الأعمال تثير الرعب والخوف بين الناس، واتبعت نسقية السلطة سياسة الظلم والاستبداد وابتعدت عن سياسة العدل. إن حيازة السلطة التي تنطوي على القوة والمال جعل سي ادريس إحدى شخصيات الرواية في وضع يهيمن ويسيطر على الآخرين ويخضعهم بطريق القوة والعنف والإجبار. ولا شك أن من يخالف أوامرهم يطرده من محل عمله ويصبح عاطلاً عن العمل. وهكذا عناصر القوة تبسط نفوذها بفعل القوة والعنف والمال، وكما قال الغدامي أن "عناصر التفحيل الجوهرية في كل الثقافات، وهي الجنس والعنف والمال، وهيمنة الرأي الواحد ونفي المعارض، وهذه هي قيم أزلية لا تتبدل"¹⁸ لا يمكن لمن أصبح في وضع الهامش أن يخالف أوامر الطبقة العليا بسبب سيطرة الخوف.

الراوي يتحدث عن المقدم وكيف أنه يستغل من منصبه ويهدد أسرة حميد الفقيرة إما بتخريب البناء أو بدفع الرشوة حتى لا يصل بنبا البناء غير القانوني لمبناها (في حين لا يوجد قانون على الإطلاق) إلى مسؤولي الدولة: «لكن المقدم اكتشف الأمر، طرق الباب ذات صباح. لقد بنيتم بركة. وهذا ممنوع بدون رخصة... المهم أن أي بناء لا يتم إلا بالترخيص من الدولة، افتحي الباب سوف أدخل لأرى ما فعلتم... إنها بركة بالفعل تتسع لأكثر من اثنين. لا بد أن يكون لها ترخيص. سوف أعود غداً أو بعد غد لأجركم قد هدمتموها. - ارجوك السي المقدم. - لا سي فلان ولا هم يحزنون. القانون هو القانون، ويجب أن يطبق على الجميع. أنتم خالفتم القانون، تنتظركم الذعيرة أو حبس سيدي، ما تقوله هو الحق. كان الزوج داخل البركة، لم يستطع أن يخرج لمواجهة الرجل الذي يمثل الدولة. خاف أن يقتاده إلى المقاطعة ويحبسه هناك... قالت الزوجة: هل سمعت... أنت السبب في هذه المصيبة... عندما يعود دس له عشرة أو عشرين درهماً. إنه يحب الرشوة وإذا لم يقبل؟ ليس هناك من واحد في المملكة يرفض الرشوة»¹⁹

حيازة السلطة جعلت موظفي الدولة يستخدمها (أي السلطة) للاستغلال من مناصبهم وأخذ رشواى من الآخرين، وتهديدهم بشتى الطرق. لذلك نجد أن الطبقة العليا في النص السردية هي طبقة مهيمنة وتكشف عن هيمنة الذات

الفحولية وسيطرتها على الآخر الضعيف. «ورأى [حميد] ظلماً أمامه فوق الجدار المقابل. التقت في خوف. كان الرجل ببذلته الرسمية الزرقاء ينظر إليه بطريقة عدوانية ومسدسه يتدلى عن يساره حتى ليكاد يسقط. لم يتبادلا أول الأمر أي كلمة. أخذاً ينظران إلى بعضهما. العيون وحدها تتحدث. بعضها خائف وبعضها غاضب. وقال الرجل ذو البذلة الزرقاء : ماذا تفعل هنا أيها اللقيط ؟ كم مرة قلت لك ألا تعود إلى هذا المكان؟»²⁰

لذلك خطاب الفئة العليا يقوم على رفض الآخر وتهميشه وإلغاء وجوده، وكل ما يقع خارج مفاهيمها وحدودها، فأحكم السيطرة عليه وقيد حريات الناس ومنعهم من مزاوله أبسط الأمور الحياتية، فهي السلطة التي تدخل ضمن نطاق المقدس وقد أضمرت الاستخفاف بالدين، والانحلال الأخلاقي والقيمي، وخرقت العادات والتقاليد المجتمعية؛ مما أدى إلى حدوث خلل في السياق الاجتماعي: «لقد أصعدني الشرطي بالقوة إلى السيارة. هل تعرفون ماذا فعل فيما بعد ؟ أتى بزجاجتي خمر فارغتين، وزجاجة ممتلئة حتى النصف، قال : لقد شربت كل هذا وفعلت كذا وكذا، لم أفهم شيئاً من كل ذلك. قلت أمام المحكمة إنني لم أشرب، وحاولت أن أشرح كل شيء لرئيس المحكمة، لكن الرئيس سألني : - مهنتك ؟ - بائع صحف. قال الرئيس : تفعلها وتفعل أكثر منها أيها الكلب. والله يا سيدي لم أفعلها، ثم إن الخمرة ليست حراماً. كل المسلمين يشربونها في (البار)، اذهب يا سيدي الرئيس إلى البار كيف أن جل المسلمين يشربون الخمر. والشرطة فوق ذلك تحرسهم. قال الرئيس : - من أين تعلمت هذا الكلام ؟ هل تريد الإخلال بمقدسات البلاد يا كلب ؟ يجب أن ترى وتسكت، أن تسمع وتسكت»²¹

في هذا النص، أن نرى كيف يفسر موظفو الحكومة - الذين هم في الواقع من مرتزقي الحكومة ومن ممثلي الطبقة العليا- الدين لأنفسهم بأي طريقة يريدون، لدرجة أنه عند إلقاء القبض على المتهم بشرب الخمر والإخلال بالنظام العام، يُقسِم أمام القاضي أنه لم يشرب الخمر. ولكنه عندما يرى أن القاضي لا يقبل كلامه، يقول له: إن الخمر ليس حراماً لأن جميع المسلمين يشربونها في الحانة والبار، والشرطة تراهم، بل تحرسهم. ثم يقول القاضي رداً عليه: يمكنك رؤية هذا وسماعه، لكن ليس لديك حق في قول أي شيء عنه وعليك أن تصمت وتسكت. هذا الأمر يدل على الاختلاف بين الباطن والظاهر ويكشف عما يضمه هؤلاء من خرق واضح لتقاليد الدين والمجتمع.

تقضح الرواية مظاهر الاضطهاد الممارس ضد سكان البراريك، فنجد الشرطي يهين حميد، ويصفه بأقبح الصفات (الكلب، اللقيط، النذل... الخ) ؛ لأنه ينتمي إلى سكان العالم السفلي، كما نقرأ انتهاك الشرطة لجسد المغربيين باسم القانون " قيل لحميد إن رجال الشرطة يعتقلون إما لابتزازهن أو لاغتصابهن...، إذا كانت المرأة تعرف كيف تدفع من جيبها أو من جسدها "22

وهكذا الأشخاص الذين ينتمون إلى الطبقة العليا يسمحون لأنفسهم بتفسير الدين كما يريدون لأنفسهم، وبسلب الأموال وأخذ الرشوة وأخذ النساء عنوة واستعمال القوة ضد الضعيف: «عندما غادر باب العمارة أوقفه شرطي يجرد دراجته الهوائية فوق الرصيف، وقد تدلى مسدسه واتسخت بدلته وبهتت. إليه أنت ! تعال، ماذا تحمل تحت إبطك ؟

- صحف. -

الأشياء الأخرى تحت إبطك ؟

- ثياب. - أرني تلك الثياب.

مد حميد الحزمة للشرطي. أخذ هذا الأخير ينشرها في الفضاء أمامه ويتأقلمها قطعة قطعة، ثلاثة قمصان وسروال. خطرت للشرطي فكرة :

من أي سطح عمارة سرقتها ؟

والله لم أسرقها، أعطتها لي اليهودية، إنها تسكن في هذه العمارة.

اسكت يا كلب.

إني أعرف أمثالك، الشكوى في المركز كثرت من كثرة سرقة السطوح. قل لي من أي سطح سرقتها ؟

أقسم لك. لم أسرقها، أعطتها لي اليهودية.

اسكت، لا تفتح فمك القذر.

جمع الشرطي الثياب تحت إبطه. ترك الدراجة متكئة على عمود كهربائي. وقال لحميد : انتظر هنا، سأتلفن للمركز حتى تأتي سيارة الشرطة لتأخذك أيها اللص»²³

يبدو أن القاضي والشرطة يحاولان تطبيق الأحكام الإسلامية في المجتمع ومكافحة شرب الخمر والسرقة لكنهما يضمنان خلاف ذلك فهؤلاء يخترقان الأحكام الدينية، ويستخدمون سلطتهم ونفوذهم لتحقيق رغبتهم وطلباتهم وهكذا سلطة القوة تسمح لنفسها بما لا تسمح به لغيرها و«هذا تاريخ طويل يأخذ صوراً متنوعة ويكرر نفسه في صيغ متعددة ولكنه كله يأتي من مصدر نسقي واحد، حيث يتجاوز المعلن مع المضمحل ولكن في حالة تضاد وتناقض»²⁴

هذه الشخصيات تقابل شخصيات الطبقة السفلى مثل سكان البراريك والضواوي وحميد وغنو والحسن وفيطونة وغنو. هذه الشخصيات الأخير كلها منسوبة إلى الفقر والجهل والتهميش والاستسلام. نرى هذا التضاد والصراع في أماكن متعددة من الرواية، حيث تحولت بعض المجموعات الاجتماعية المهمشة والمغيبية (مجتمع البرارك) إلى نماذج

سردية يحيط بها الإقصاء والتهميش، بفعل عنصرى الاستلاب والتشويو، استطاع الروائي أن يفصح في روايته سياسة القمع المنهجي ضد الأقليات المضطهدة في المغرب، ومحاولة خلق قضاء مكاني موازي، مهمته تغيب الماضي (حق هذه الأقليات في الحصول على حقوقها المدنية)، وتوفير فضاء المتعة (قاعدة عسكرية الأمريكية)، كما حاول الروائي من خلال التجلي المكاني مسرح الأحداث وفق مبدأ التماثل الوظيفي، فبيوت الصفيح فضاء يحيل على الهامش الاجتماعي الذي أفرز نماذج بشرية مستلبة تعاني عجزا على مستوى الوعي (التعليم) احترفا وظائف بسيطة بسبب انعدام التعليم « لو لم يكن ذلك الحشاش أبي، لكنت قد أنهيت دراستي وأصبحت موظفاً مع الدولة، هو الذي أوقني عن الدراسة ودفعني إلى هذه المهنة القدر، عندما أتذكر ذلك أعب زجاجة من النبيذ دفعة واحدة»²⁵ فغياب الوعي عند الأب شجعه على تشغيل حميد في سن مبكرة، ويوضح المقطع السردى أمل حميد في التعلم لو منحت له الفرصة، وقد أدى انقطاع حميد عن الدراسة واشتغاله بانعا للجراند إلى وقوعه في مأزق عديدة، بسبب الأماكن التي كان يرتادها خلال فترة عمله؛ لكونها بؤر للعنف والجريمة (البار والملاهي الليلية والسفن الأمريكية)²⁶

وكذلك أن واقعهم حوّلهم إلى لصوص ومتسولين: « يخرج إلى بائعي التين الشوكي أو بائعي البرتقال أو بائعي البطيخ الأصفر والأحمر، ثم ينظم غارة هو وبعض أصدقائه، فيختطفون أو يسرقون ما يقتاتون به. وربما كانت الغارة فاشلة، فينتهي أحدهم إلى مركز المقاطعة، حيث يشبعه ضابط القوات ذلك المساعدة أو الاحتياطية ركلا وشفعاً...»²⁷ و«امتداد شاسع من البراريك القصديرية، كلها تمتد في ساحة واسعة بضاحية المدينة... كل هذه الآلاف من الناس هي في خدمة سكان المدينة. منهم الحفارون والخادمت والصلوص ومنهم الصباغون والجيارون والبائعون المتحولون والمتسولون وكل شيء. منهم كل شيء وكل شيء حتى بائعو الصحف... أحياناً كان أبوه (أبو حميد) يأخذه معه إلى الغابة لجني البلوط وبيعه بثمن بخس لكن ذلك لم يكن يستمر طويلاً، فموسم البلوط كان ينتهي بسرعة، لأن سكان البراريك العاطلين كانوا ينقضون على الغابة مثل الجراد، فلا تبقى هناك بلوطة واحدة... إنها المجاعة، وحيث يكون الجوع فإن قتل الإنسان يكون مثل قتل ذبابة»²⁸

فضاء البراريك هو فضاء تصدير الجريمة والعنف والسرقة، كما شكل المكان من جهة أخرى فضاءات مغلقة تعيش في الظلام تآبى أن تكشف عن نفسها؛ لأنها أماكن فسق ودعارة ومجون، كالملاهي الليلية التي تعج بالأمريكيين والعاهرات من جنسية مغربية: «يتدفق على البارات الجنود الأمريكيان والملاحون من مختلف الجنسيات. تسكر المغربيات والأجنيبات. يتشاجرون في صباح هذه الليلة بالزجاجات وبالأيدي. الجنود الأمريكيون بالخصوص، يدوسون كثيراً من الخادمت المغربيات والسكراري بسياراتهم الطويلة العريضة»²⁹ وهكذا مارست الطبقة العليا الاستبداد والتسلط ضد الطبقة الدنيا. لقد كانت تلك الفئة نقيضة لهذه الفئة ومضادة لها؛ لأنها لطالما عانت التسلط والظلم والاستبداد المسلط على المجتمع وغيرها من المسببات التي أدت إلى ظهور الأزمات الاجتماعية، في المقابل هناك الطبقة الدنيا الكادحة التي تمثل في وجود بعض الشخصيات مثل حميد وأبيه ورفاقه وغنو وهي الرافضة بملهى ليلي والتي وصلت إلى هذه الحالة بسبب فقرها الذي عانت منه في قريته. يمكن القول أن المجتمعات البشرية كلها ترجع إلى هاتين الحالتين تقريبا وينتمي كل فرد إلى إحدى الحالتين وبينهما حرب مستمرة. لأن الطبقة العليا تحاول دائماً الحفاظ على مكانتها وحتى رفعها إلى أعلى، والطبقة الدنيا تحاول دائماً إنقاذ نفسها من هذا الوضع المثير للشقة وتدمير الطبقة العليا واحتلال مكانها. ولا تزال هذه الحرب مستمرة إلى نهاية العالم إلى أن يفضي الله أمره.

4-3 الثنائية بين الرجل والمرأة

من أهم المواضيع التي تطرق إليها الراوي في روايته موضوع القهر وقمع المرأة من طرف المجتمع والعائلة والعادات والتقاليد. إن التراث الثقافي والفكري العربي خاضع لنسق ثقافي مضمّر تولى صياغة الرأي وتوجيه الموقف من المرأة، فالثقافة العربية والغربية تحيزت ضد المرأة، وانتصت من قيمتها جسدا وخطابا³⁰ ويقع الخطاب الروائي ضمن دائرة المركز والهامش، حيث يبرز صوت المرأة المقموع التي تفكك بنية المجتمع الذي تعيش فيه ويهيمن فيه النسق الذكوري بامتياز، إذ إنّ التساؤلات التي تطرح في الرواية تحمل أبعادا نسقية، تضر ما هو مسكوت عنه، فالواقع الاجتماعي يدني من منزلة المرأة ويرفع من منزلة الرجل، فهو المتسيد / المركز الذي ليس على المرأة سوى أن تخضع لإرادته.³¹

المرأة توصف بالدونية وهذا الأمر ناتج عن هيمنة الأنساق الثقافية في ذاكرة الفرد الجزائري، فالمرأة بالنسبة إليه مجرد متاع أو لباس أو أثاث يغيره متى شاء، وقد توارثت هذه الفكرة عبر التاريخ والأجيال ليؤكد بذلك الرجل حقه في دونية المرأة. وهذا ما نقرأه في النص التالي من الرواية: «هو (حميد) ليس مثل أبناء الحي الذي يضربون أمهاتهم حتى يسيل الدم من أنوفهن»³²

وهنا يشير حميد الذي هو في الواقع صوت الراوي، إلى إحدى العادات القبيحة للشباب المغربي، الذين اعتادوا على ضرب أمهاتهم. الراوي من خلال حميد الذي لا يضرب والديه، يرد على هذه القضية القبيحة ويعلن معارضته.

«رأت الزوجة الحسنَ قداماً نحو المجموعة فانفصلت عن النساء، خافت أن يسمع حديثها فيدس رأسها بين رجليها، ويملاً فمها بالتراب حتى تغلقه نهائياً...»

ماذا تفعل وراء البراكة يا ولد (الخائز)؟

الأب: هل تعتقدن أن في الدنيا من هو (أخزن) منك؟³³

وهذه الأسطر تتم عن النظرة الدونية بالنسبة للمرأة وتدلل دلالة بالغة على ما تعانيه المرأة في المجتمع المغربي: «قطب الحسن جبينه، طقطقت أسنانه واحتكت أضراسه ببعضها. دفع الباب بركلة وخرج. توقف عند البقال... البقال:

أنت لا تملك حتى عود ثقاب، لهذا السبب فهي تتبج وراءك دائماً.

- لو سمعت الكلام الذي كانت تخرجه من ذلك الفم القذر.

- هل يداك مشلولتان؟ لماذا لا تضربها؟

لقد تعبت من ذلك كله»³⁴

هذا الحوار يكشف عن توتر الوضع في المجتمع والرجل يتسلط على الأنثى فالعلاقة بينهما علاقة نفور وانفصال، فهو يمتلكها ويتلذذ بتعذيبها ودلالة الخوف تحمل هذا المعنى المنتشر بين الناس، لذلك يصف الراوي علاقة أم حميد بأسرتها: «أنا أنظر إليّ. لقد جعلتم مني عجوزاً قبل الوقت. اشتغلت كل الحرف لكي أطعم زوجاً كالبلغل وأطفالاً يأكلون كالجراد»³⁵ و«ثم تقول (الأم) بصوت مرتفع:

هذه الدار خالية. واحد ينام حتى الظهر، والآخر يعود بفرنكات قليلة لا تساوي حتى ثمن ربطة عنق.

الأب لا يرد، فقط يدخل سجائر رخيصة، سيجارة تلو الأخرى، يمدد عضلاته فوق الحصير، ويسحب اللحاف

المرقع الوسخ فوق جسده»³⁶

في هذه العبارة، بدلاً من أن يقلق الأب باستمرار بشأن وضع أسرته، فإن الأم هي التي تقلق وتحاول باستمرار حل هذه المشاكل. يصل هذا الصراع إلى ذروته في العبارة التالية ويتم نقله إلى الجمهور من خلال كلام لاذع:

"قلها لنفسك لو أنك تفعل مثل أسيادك: تستيقظ مبكراً وتذهب إلى الميناء، تأخذ مكانك بين الحماليين وتعود في المساء بثروة»

قالت الأم: هذه الدار خالية، واحد ينام حتى الظهر...»³⁷

والدة حميد تلوم زوجها بشدة وتقول إنه يجب أن يستيقظ في الصباح الباكر ويذهب إلى العمل بدلاً من أن ينام حتى الظهر. مهما حاولت إقناعه بالعمل، لا يمكنها ذلك. دائماً ما يقدم الأب أعذاراً مختلفة، أحياناً يتحدث عن الرشوة، وأحياناً يتحدث عن مرضه كعذر، رغم أنه قوي جسدياً ولديه القوة للعمل.

"أنت لا تعرفين الميناء، لا يصلك الدور إلا بالرشوة أو إلا إذا كنت قوية كجمل. انظر إلى

كتفيك، إنهما مثل كتف البلغل." «يا بنت الناس ما عندي صحة، ثم أننا لا نريد أن نتشاجر الليلة. اهتمي بتهيئة

شايك»³⁸

هذه الصورة للمرأة تقوم على ذهنية جماعية تضطهد المرأة وتجعلها كأننا وجد للخدمة فهي تبذل أقصى طاقتها لإطعام زوجها وأطفالها دون أدنى اعتبار لوجودها. فالبيت مقفر لا يوجد فيه أدنى مستلزمات الحياة مما يعبر عن "معاناة الهامش وصورهم الشقية"³⁹، يبدأ الشقاء من من الفقر، وإحساس الذات بحاجتها يجعلها تعيش في حرمان ومعاناة وألم يتسرب إلى داخل الروح، لذا كان الحزن والألم نسقاً تسرب من ثنايا المرأة لتعبر من خلاله عن قهر المجتمع للأنثى⁴⁰ هذه الانفعالات لأم حميد تجاه زوجها لم تأت من فراغ بقدر ما كانت تعبر عن معاناتها وثقل وطأته عليها.

فأم حميد في هذه الرواية رمز للمرأة الطموحة المكافحة والمرأة التي لم تنقص من عزيمتها الظروف التي تعيشها أو قسوة الزمن، هي رمز للمرأة الريفية المثابرة. ولكن في المقابل، الأب عكسها تمام. من خلال هذا التناقض، يسعى المؤلف إلى إدانة هذه العادة القبيحة لوالد حميد الذي يقضي يومه في النوم العميق أو الجلوس أمام دكان البقال.

"الأب لا يرد، فقط يدخل سجائر رخيصة. سيجارة تلو الأخرى يمدد عضلاته فوق الحصير ويسحب اللحاف المرقع

الوسخ فوق جسده، أحياناً يخرج عن صمته.."⁴¹

من خلال هذا المقطع نستنتج أن الحوار الذي دار بين الأم والأب يؤكد على دور الأب في الأسرة فهو لا مهمة له في الأسرة من غير الراحة والأكل والتدخين، هذا الأمر يعيشه العديد من الزوجات في ظل الصعوبات الاقتصادية وتقشي البطالة التي استغلتها بعض الأزواج ليجعل من عمل زوجته مطية الابتزاز والتواكل.

كما نلاحظ أن هناك مجموعة من العادات والقيم الاجتماعية التي تهيمن في المجتمع، فضلاً عن أفكار تهيمن على أذهان العامة من الناس توضحها النصوص السابقة. يكشف الحوار عن مناقشة الأنثى لجملة من القضايا ومساءلة الأنساق الثقافية والواقع الذي يفرض الهيمنة والسلطة للرجل، فالخطاب المهيمن هو خطاب ذكوري محض ولا مكان للأنثى فيه التي تجد نفسها في منزلة أدنى وأقل في العرف الاجتماعي. ونستطيع القول بأن الراوي يريد تعريف مخاطبه بهذه الظاهرة الاجتماعية القبيحة ومكان الخلل الموجود في المجتمع؛ يريد أن يقول إن الأنثى في مجتمعها تتعرض إلى القمع.

ولعل بالبحث والتأمل في عمق الظاهرة يتضح لنا أن هذا الأمر نابع أولاً من تدهور الأحوال الاجتماعية في المجتمع المغربي ونقص في المواد المساعدة على العيش. هكذا نستنتج من بأن شخصية الأب مختلفة تماماً عن شخصية الأم، فهو رمز للأنانية، والجشع ولا يهيم سوى مصلحته.

وهذا النوع من الثنائيات الضدية موجودة منذ الأزل، مع أن هذين الطرفين ضدان لكنهما يتوحدان في واحد كلي فحين تشير الثنائية إلى التعدد تنتهي إلى الوحدة، والتكامل، فالمرأة لا تتناقض في جوهرها الرجل، ولكنه امتمة له، ولازمة لوجوده، فلا تظهر الفضيلة إلا باقترانها بالصد، ولا معنى للكرم من غير اقترانه بالصد، فلا بد لكل شيء من ضد يميزه، ويوضحه.

4-4) الثنائية الدينية

إن الظروف التاريخية التي عاشتها الجزائر فرضت عليها واقعا مأساويا مريرا، تمثل في الواقع الذي فرضه الاستعمار والأجانب على الشعب الجزائري سياسيا واجتماعيا وفكريا، فقد كان هدفهم هو القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية واللغة العربية والدين الإسلامي⁴²

«أوقفه أمريكي ضخم الجثة، كان في منتهى السكر. مد له زجاجة البيرة... لسان الرجل متعب من فرط الشراب. فهم أنه يدعو للشراب، أشار حميد برأسه أن لا. لكن الأمريكي خاطبه بالعربية: - لا تريد؟ لا. لماذا؟ أنا مسلم. قل أنا صغير أحسن⁴³... جره من ثيابه القذرة... نحو الفاصل الخشبي حيث كانت المرأة ذات العجيزة تترنح هي الأخرى. قال الأمريكي: هل تعجبك هذه الفرنسية؟ قال حميد: لا. لماذا؟ ألا ترى أنها جميلة؟ - إنها أكبر من أمي. قال الأمريكي: ماذا تقول في، هل أنا نصراني أم مسلم. أنت أمريكي. كل الأمريكيين نصاري»⁴⁴

هنا يقدم لحميد رجل أمريكي النبيذ والصدقة مع أمرة فرنسية لكنه يرفض طلبه بحجة أنه مسلم. وبعد أن يقدم الرجل الأمريكي لحميد بعض لحم الخنزير، يرفض حميد، ولكنه يضع الرجل الأمريكي اللحم بالقوة في فمه، وأما حميد فيعد أن ترك البار يلقي ما بداخل فمه خارجاً. حتى عندما التقط الأطفال ما تبقى من شرائح اللحم على الأرض ليأكلوها، يوبخهم حميد بأن هذه السندوتشات حرام:

كان أمام الأمريكي سندويش من لحم الخنزير... أخذ حميد ينظر إلى بقايا (السندويش)... لاحظ الأمريكي أن حميد ينظر إلى بقايا (السندويش)، فقال لحميد: ألم تأكل؟ هل تريد هذا؟ سأله حميد: هل هو لحم الحلوف؟ - نعم - لا أكله. - لا يهتك. كُله، حتى تصبح سميناً مثلي. وأردف الأمريكي بلغته: لقد حشوا رؤوسكم بأفكار فارغة. يجب أن تأكل حتى لا تظل نحيفاً مثل معزة. أمسك الأمريكي (السندويش) وحاول أن يدسه في فم حميد بالقوة وهو يضحك. - يجب أن تأكل. طيب، سأكله عندما أخرج. لا. كله أمامي. تناوله حميد وعض منه قطعة صغيرة. أخذ يلوكها أمام الأمريكي، ضرب هذا الأخير على كتفيه: فيري كودا! يجب أن تأكل، سوف تصبح قوياً ورجلاً في بضعة أيام. عندما غادر حميد (البار)، بصق ما في داخل فمه بنقز، وطوح (بالسندويش) في الساحة الصغيرة أمامه، فانفصلت شرائح اللحم عن الخبز وتشتتت. رأى طفلين مشردين، يركضان. يتخاطفان (السندويش) من الأرض. أخذاً يلتهمانه بنهم. صرخ فيهما حميد: - إنه حرام. إنه لحم الحلوف. لا تأكلوا. لكنهما لم ينتبها له ولم يسهماه. أخذاً يتخاطفانه يلتهمانه، ويلتقطان بعض الشرائح من الأرض، من الأرض مباشرة إلى الفم، دون تقزز. دون أدنى تقزز»⁴⁵

ولحم الخنزير ولحم الحلوف وعبارة (حشوا رؤوسكم بأفكار فارغة) تشير إلى دين غير دين الإسلام وتدل على الخروج عن الإطار الإسلامي. في هذه الجملة الأخيرة يسخر الرجل الأمريكي من المسلمين ويعتقد أن علماء الدين قد ملأوا أذهان المسلمين بالخرافات والأشياء الفارغة. لا بد أن تشير إلى أن إحدى أسباب إضعاف إيمان الناس كانت ظاهرة الاستعمار. بالطبع، أن الاستعمار ليس هو السبب الوحيد لذلك، لأنه قبل ظهور الاستعمار بسنوات عديدة، أصبح انتهاك القواعد الدينية أمراً شائعاً في المجتمع الإسلامي. لكن دون شك لا يمكن تجاهل الدور الهدام والمدمر للمستعمرين في تخلف المجتمع الإسلامي وانحطاطه الأخلاقي.

نرى حميدا في بداية الرواية محترماً والديه، متلماً بالدين، غير أكلا لحم الخنزير، غير شارب للخمر وفي نهاية رواية غير محترم لوالديه، غير متلزم بالدين، شاربا للخمر. وهكذا خرجت شخصيته من نمطيتها، وأحيانا أصبحت تصرفاتها غير متوقعة، هذان البعدان يجعلان الشخصية مميزة، تحطنا في حدود الواقع حياً، وفي حدود الخيال أحياناً، في حدود الدين حياً، وفي حدود الخرافة، في حدود الحكمة، وفي حدود اللامعقول، وهكذا يبقى القارئ متسائلاً عن سر صمته في موقف، وسر ثورته في موقف آخر. فمثلاً في النص التالي يطلب سي إدريس من حميد أن يدخن ويشرب الخمر، لكنه يرفض ذلك، فيفاجأ بسوك حميد. إن دل هذا على شيء فيدل على أن حميدا شخص متدين وملتزم ومعتقد بالإسلام وأحكامه:

«هل تدخن؟ لا. مزيان. هل تسكر؟ لا. مزيان أيضاً، لكن هذا غريب. إن الحثالة من أمثالك يكونون قد تعلموا هذه الأشياء قبل بلوغ العاشرة. لا علينا. إذا لم تكن قد تعلمت هذه الأشياء...»⁴⁶

هذه هي شخصية حميد في بداية الرواية، شخصية مسلمة متلزمة بالدين غير شاربة للخمر غير آكلة للحم الخنزير. أما هذه الشخصية تتغير منذ أن التقى غنو. حدث هذا التغيير عندما تشاجر أمريكي ومغربي حول غنو العاهرة. تمكن حميد من إنقاذها. وبعد أن تعرف عليها تغير سلوك حميد الديني إلى حد كبير:

«... بقي له أين ينام؟ أين يمكن أن يمتد جسده؟ هنا أم هناك؟ تشجع واندفع نحوها. خاف أن تزجره، لم يجرب كثيراً هذه الأمور. جلس بخوف وتوجس عند حافة السرير الذي تتمدد عليه غنو. لم تتأفف، لم تنتفض، لم تزجره. إنما، تزحزحت قليلاً وتنهدت، ثم أفسح مكاناً بجانبها. استعاد ثقته بنفسه، تمدد بجانبها، انتظرها ماذا تفعل، مغمضة العينين، أخذت تنزع ثيابها عنها وتلقيها على الأرض، فعل مثلها بدون خوف...»⁴⁷ سيظل (حميد) يتبع تلك المشؤومة حتى تقضي عليه. كيف تقضي عليه؟ إنه رجل ثم، من لا يمتنى أكبر عدد ممكن من النساء؟... كل الزملاء يعرفون الآن أن لحميد علاقة مع غنو وحميد الآن يحاول أن يحصل على أكثر من غنو واحدة... أصبح حميد أحياناً يبيت في بيت عند غنو.⁴⁸

أو في مكان آخر، يشير الراوي إلى الغرفة التي ينام فيها حميد وغنو، وهذه الغرفة مليئة بكؤوس النبيذ وهنا بدأ حميد بشرب الخمر:

«في الغرفة كانت دائماً هناك زجاجات نبيذ وانصاف زجاجات. ولكثرة ما تعود حميد على رؤيتها ورؤية غنو وهي تشرب، حاول أن يبدأ، في النهاية، بدأ بكأس مر. ثم بكأسين أقل مرارة... ثم... إلخ.»⁴⁹ لقد تغير سلوك حميد كثيراً لدرجة أن والدته لاحظت ذلك وقالت لنفسها إنه لابد أن تدخل امرأة في حياته:

«وكانت أمه تشعر بأن هناك شيئاً ما يدور في رأسه، لقد تغير كثيراً، فكرت أن الرجل عندما تتغير عاداته، فإنما المرأة هي التي تفعل به ذلك. وحاولت أن تخمن من تكون تلك المرأة»⁵⁰

حميد، الذي كان لا يكذب على والديه، يكذب الآن بسهولة وحتى عندما تسأله والدته أين قضيت الليل: يقول حميد لها: كنت مع صديقتي.

«أصبح الآن يواجه [حميد] أباء وأمه. يرفع عينيه في أعينهما، يستطيع أن يكذب بثقة. أين نمت أمس؟ - ليس هذا شغلك، لقد نمت عند صديق. - هل هو صديق أم صديقة؟ - صديقة.»⁵¹

حتى حميد نفسه أدرك أنه لم يعد ذلك الشخص السابق. يشرب الخمر كل ليلة وينتظر عودة صديقه غنو إلى المنزل:

«بدأ حميد يشعر أنه شخص آخر، يشرب كل مساء وينتظر غنو في نهاية الصباح لتوقظه عندما لا تتغيب أو تذهب مع زبون»⁵²

لذلك، نرى أن هناك صراعاً بين الإسلام والديانات الأخرى، وكان هذا الصراع من الظواهر الشائعة في المجتمع المغربي في ذلك الوقت. لأن الرواية «ترتبط ارتباطاً شديداً بالواقع فهي ترجمان له بل هي تشكل جسدها النصي من خلال الواقع الاجتماعي والثقافي وتحوال التعبير عنه بأسلوب الفني والجمالي للتأثير في المتلقي وجذب انتباهه بهدف تحريكه للتغيير»⁵³

4-5) الثنائية بين السنة والتجدد

جانباً آخر من جوانب التضاد والصراع في هذه الرواية هو التضاد بين التراث والحداثة. يقدم الكاتب في روايته بعض العادات والتقاليد التي يتقيد بها المجتمع المغربي. إحدى المظاهر التقليدية للمجتمع الجزائري هي الخرافة. ويذهب العلماء إلى أن الخرافة هي الأفكار والممارسات والعادات التي لا تستند إلى أي تبرير عقلي ولا تخضع لأي مفهوم علمي سواء من حيث النظرية أو التطبيق⁵⁴ والتفكير الخرافي فهو «التفكير الذي يقوم على إنكار العلم ورفض مناهجه، أو يلجأ إلى أساليب سابقة على هذا العصر»⁵⁵ والفكر الخرافي مازال يمارس تأثيره على عقول الناس حتى يومنا هذا. فإن مظاهر الخرافة في مجتمع ما، تتحدد بمستوى التقدم الحضاري بمفهومه الواسع ثقافياً واقتصادياً وعلمياً، وهي بذلك تعبير سلبي عن مقدار هذا الرقي.⁵⁶ وبما أن الخرافة تسجل حضورها الواسع في العقل العربي المعاصر في مختلف شرائحه الاجتماعية بين العامة والخاصة كما بين النخبة والجماهير⁵⁷ فبإمكاننا أن نرى من خلالها مدى تخلف هذه المجتمعات؛ ذلك «أن الخرافة سلاح من أسلحة الخرافة»⁵⁸ فعلى سبيل المثال، عندما ينخفض دخل حميد، تلومه والدته وتعتقد أنه إما لا يعمل بشكل جيد أو سيعطيها لفتاة أو امرأة. تقول إنه سيذهب إلى الفقيه الحريزي لكي يبعده هذه المرأة أو الفتاة عنه: «انظري يا أمي، قدماي تورمنا من المشي. أقسم لك حصلت عليه اليوم، اذهبي واسألي الرئيس إذا شئت، لم أبع سوى عشرين صحيفة هذا اليوم. اسكت يا شبيباً بأبيه. إما أنك تظن نائماً في إحدى الحدائق العمومية، أو أن هناك مسمومة تأخذ منك كل ما تحصل عليه. سوف أذهب إلى الفقيه الحريزي لكي يكتب لك تميمة تبعد عنك تلك الجنية. ما أقل الرجال وما أكثر النساء»⁵⁹

من الخصائص الأخرى للمجتمع التقليدي أن الآباء يختارون الزوجات لأبنائهم، مثلاً بعد أن أصرت والدة حميد على أنه بلغ سن الزواج، أخذت على عاتقها أن تجد زوجة مناسبة له. فقامت بالبحث عن الزوجة المناسبة له ثم اختارت فيطونة وهكذا أجبرته على الزواج بفتاة لا يحبها رغم أنه لا يتعدى الثامنة عشرة من العمر: «وبالفعل قررت أن تفعل ما تشاء. استعرضت خمس أو ست فتيات، هذه شغالة وهذه عاطلة، هذه عمشاء والأخرى تعمرز بقدمها، لكنها ذات

ردفين وسمينة. تحيبيها كلما رأتها، ويبدو أنها ستكون مطيعة لها. وعندما تحدثت الأم إلى حميد طأطأ رأسه خجلاً، فكر ملياً، لم يرفع رأسه في وجهها»⁶⁰

لا خيار أمام حميد سوى قبول رأي والدته وهكذا تلاعبت أمه بمستقبله: «قررت أن تفعل ما تشاء أيضاً، اقترحت فيطونة التي تغمز بقدمها اليسرى، تخيل حميد صورتها. لا بأس إذا غمزت بقدمها لكنها ذات ردفين وسمينة.»⁶¹ وهذا دليل على استهتار الأم بمستقبل ابنها الأسري كما صور السارد المرأة وسيلة للمتعة الجسدية.

إن الكاتب ركز على الجانب الجسدي الذي تتميز به فيطونة: (تغمز بقدمها - ذات ردفين - سمينة). هذا يدل على أن الأم لم تختار فيطونة بمعايير موضوعية وصحيحة، ولم تهتم أبداً برأي حميد واعتقدت أن المرأة المثالية للزواج هي المرأة الكاملة من حيث البنية الجسدية. كما يدل على أن الأم اختارت فيطونة لأنها تحترمها وتحبيها كلما رأتها. «تحييها كلما رأتها، ويبدو أنها ستكون مطيعة لها»⁶²

هكذا اختارت الأم زوجة ابنها دون مراعاة مشاعره واحتياجاته النفسية. هذه إحدى خصائص المجتمعات التقليدية حيث لم يكن للفتيان والفتيات أي دور على الإطلاق في اختيار أزواجهن المستقبليين - مثل حميد - أو كان لهم دور ضعيف للغاية.

أما في مقابل هذا الأمر فنشاهد بعض لمظاهر الحداثة. فنحن نشاهد هذه المظاهر في تصرفات غنو وبعض أعمالها. غنو هي بنت القرية وقبل أن تهرب من قريتها تمسكت بالقضايا الأخلاقية والعائلية: "كوخنا في العامرة أحسن من أية بركة من تلك البراريك. لو لم تقع تلك الحادثة لكنت قد بقيت مع أبي وأمي وإخوتي. العامرة أفضل لي بكثير"⁶³

ولكن بعد هروبها من القرية ومجيئها إلى المدينة تغيرت ثقافتها وشكلها وملابسها ونوع تصرفاتها بالكامل وأصبحت الآن ترتدي ملابس قصيرة وتنزعها أحيانا وتقص شعرها وتصبغها كالرجال وتشرب الخمر وتدخن وتعلم بعض الكلمات الأمريكية حتى تتمكن من التواصل مع الجنود الأمريكيين، وجذبهم وإقناعهم بالنوم معها مقابل المال. كل هذه التغييرات في غنو هي نتيجة مجيئها إلى المدينة وقبولها للثقافة الحضرية: «تعلمت من خلال ثلاثة أشهر كيف ترتدي البنطلون وتقص شعرها وتضع الأصباغ وتشرب وتدخن، وتعلمت أيضاً بضع كلمات أمريكية تستعملها عند الحاجة... المومس غنو في منتهى السكر وكل واحد يجرها نحوه... كان يدفعان عليّ وكل الناس يدفعون عليّ لكنهما في الأخير تشاجرا وكل واحد أرادني لنفسه. لا أستطيع أن أقسم جسمي شطرين»⁶⁴

5- النتائج

بعد هذه الرحلة الطويلة استوى البحث على عدة نتائج نذكرها فيما يلي:

من أهم الثنائيات الموجودة في رواية محاولة عيش: الثنائية بين الأبيض والأسود، والثنائية الطبقيّة، والثنائية بين الرجل والمرأة، والثنائية الدينية، والثنائية بين السنة والتجدد. ينوي الراوي من خلال الإشارة إلى التناقض بين الأسود والأبيض أن يعرف مخاطبه بإحدى المشاكل الموجودة في المجتمع المغربي حيث يخبر عن وجود هذا النوع من التمييز في مجتمعه، والثنائية الطبقيّة لها دور كبير في الرواية، هناك شخصيات تكون ممثلة للطبقة العليا مثل الجنود الأمريكيين وحراس الميناء ورجال الشرطة والسي ادريس والتي تحمل معاني استغلال وتسلط، وتسعى أن تستغل نفوذها من أجل فرض سيطرتها وهيمنتها على سكان المدينة، وجعلت حيازة السلطة الطبقة العليا تستخدم السلطة للاستغلال من مناصبهم، وأخذ رشاًوى من الآخرين، وتهديدهم بشتى الطرق، ورفض الآخر وتهميشه وإلغاء وجوده، كما أنها تفسر الأحكام الدينية والشرعية كما تريد وأما الشخصيات الطبقة السفلى فكلها منسوبة إلى الفقر والجهل والتهميش والاستسلام. أما بالنسبة للثنائية بين الرجل والمرأة فيتحدث الراوي عن هيمنة النسق الذكوري والقهر وقمع المرأة من طرف المجتمع والعائلة والعادات والتقاليد وكأن المرأة خلقت لتخدم الرجل وتبذل أقصى طاقتها لإطعام زوجها وأطفالها دون أدنى اعتبار لوجودها. والثنائية الدينية نراها في الرواية في تصرفات حميد مع الأمريكي حتى في المراحل المختلفة من حياته نفسه. حيث كان في بداية الرواية متلزماً بالدين والأحكام الشرعية لكنه في النهاية يشرب الخمر وله علاقة مع المومس غنو. جانب آخر من جوانب الصراع في الرواية هو التضاد بين التراث والحداثة. قدم الكاتب في روايته بعض العادات والتقاليد التي يتقيد بها المجتمع المغربي مثل الخرافة واختيار الوالدين الزوجات لأبنائهما كما أنها أشار إلى بعض مظاهر الحداثة والتي تمثل في تصرفات غنو وبعض أعمالها مثل تغيير ثقافتها وشكلها وملابسها القصيرة ونزعها أحيانا وقص شعرها وصبغها كالرجال وشرب الخمر وتدخين وتعلم بعض الكلمات الأمريكية. وهكذا الثنائيات الضدية التي يتبناها زرفاف في روايته لم تكن اعتباطية بل جاء في إطار تكامل الدلالة النصية.

6- المراجع

- كمال أبوديب، الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م .
- دليلة البياح، المركز والهامش في أدب عيسى لحياح، رسالة الدكتوراه، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب واللغة العربية، 2016م .
- سعيد بومعزة، رؤية العوالم المهمشة في روايي "محاولة عيش" لمحمد زفزاف، مجلة النص، المجلد 7، العدد 2، السنة 2021م .
- سلوى الخماش وإبراهيم بدران، دراسات في العقلية العربية الخرافية، بيروت، دار الحقيقة، ط 3، 1988م .
- فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة: يوننل يوسف، مراجعه مالك يوسف المطلبي، بغداد، دار آفاق عربية، 1985م .
- سمر الديوب، التثانيات الضدية: بحث في المصطلح ودلالاته، النجف الأشرف: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2017م .
- حجت رسولي وسيمه آقاجاني يزداآبادي، مظاهر الخرافة في المجتمع العربي: دراسة في روايات غادة السمان نموذجاً، مجلة الجمعية الإيرانية العربية وآدابها، العدد 20، 1390ش .
- محمد زفزاف، محاولة عيش، المغرب، الدار البيضاء، 2011م .
- فؤاد زكريا، التفكير العلمي، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة 96، مكتبة الأسرة، د.ط، 1996م .
- شفيق السيد، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم، القاهرة، دار الفكر العربي، دون تا .
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، دون تا.
- ضمياء أحمد عبد جاسم الموسوي، التثانيات الضدية في شعر ابن زيدون، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية التربية للعلوم الانسانية، قسم اللغة العربية، 2015م .
- محمد عبد المطلب، بناء الأسلوب في شعر الحدائث، إربد، منشورات عالم الكتب، 2020م .
- حوراء عزيز عليوي الكيم، الأنساق الثقافي في رواية الكافرة للروائي علي بدر، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد 1، العدد 3، 2020م .
- عبد الرحمن عيسوي، سيكولوجية الخرافة، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1983م .
- عبدالله محمد الغدامي، الثقافة التلفزيونية سقوط النخبة و بروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005م .
- عبدالله محمد الغدامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية الي التشريحية، السعودية، منشورات النادي الأدبي الثقافي، 1985م .
- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، القاهرة، ميرت للطباعة والنشر، 2002م.
- صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، بيروت: دار الشروق، 1988م .
- أديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمه جابر عصفور، الكويت، دار سعاد الصباح، 1993م .
- فاطمة المرينسي، ما وراء الحجاب الجنس كهندسة اجتماعية، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 4، 2005م .
- قبي الريم نصيرة، بن عليّة، السخرية والتهكم في الخطاب الروائي الجزائري "سيد الخراب" لكمال قرور أنموذجاً، رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف المسيلة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، 2021م .
- محمد الواسطي، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين، دراسة بلاغية نقدية، المغرب: دار نشر المعرفة، الطبعة الأولى، 2003م.
- على أسعد وطفة، الجمود والتحديد في العقلية العربية، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية، 2007م .

الهوامش

1. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، دون تا، ج1، ص 379.
2. الديوب، سمر، التثانيات الضدية: بحث في المصطلح ودلالاته، النجف الأشرف: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2017م، ص 9.
3. الواسطي، محمد، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين، دراسة بلاغية نقدية، المغرب: دار نشر المعرفة، الطبعة الأولى، 2003م، ص 234.

4. دي سوسور، فردينان، علم اللغة العام، ترجمة: بيونل يوسف، مراجعه مالك يوسف المطلبي، بغداد، دار آفاق عربية، 1985م، ص 9.
5. فضل، صلاح، النظرية البنائية في النقد الأدبي، بيروت: دار الشروق، 1988م، ص 19.
6. أبوديب، كمال، الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م، ص 26.
7. كريزويل، أدبث، عصر البنيوية، ترجمه جابر عصفور، الكويت، دار سعاد الصباح، 1993، ص 25.
8. عيد جاسم الموسوي، ضمياء أحمد، الثنائيات الضدية في شعر ابن زيدون، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية التربية للعلوم الانسانية، قسم اللغة العربية، 2015م، ص 11.
9. فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، القاهرة، ميرت للطباعة والنشر، 2002م، ص 98.
10. أبوديب، كمال، المصدر السابق، 26.
11. الغدامي، عبدالله محمد، الخطبة والتكفير من البنيوية الي التشرحية، السعودية، منشورات النادي الأدبي الثقافي، 1985م، ص 30.
12. عبد المطلب، محمد، بنأ الأسلوب في شعر الحداثة، إربد، منشورات عالم الكتب، 2020: 149.
13. السيد، شفيق، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم، القاهرة، دار الفكر العربي، دون تا، ص 221.
14. بومعزة، سعيد، رؤية العوالم المهمشة في روايي "محاولة عيش" لمحمد زفزاف، مجلة النص، المجلد 7، العدد 2، السنة 2021، ص 58.
15. الباح، دليلة، المركز والهامش في أدب عيسى لحياح، رسالة الدكتوراه، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب واللغة العربية، 2016م، 61.
16. زفزاف، محمد، محاولة عيش، المغرب، الدار البيضاء، 2011م، ص 5.
17. زفزاف، محمد، المصدر السابق، 21 و 22.
18. الغدامي، عبدالله محمد، الثقافة التلفزيونية سقوط النخبة و بروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005، ص 47.
19. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 56 و 57.
20. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 13.
21. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 34.
22. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 33.
23. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 47 و 48.
24. الغدامي، عبدالله محمد، المصدر السابق، ص 70.
25. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 85.
26. بومعزة، سعيد، المصدر السابق، ص 443 و 444.
27. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 26.
28. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 17.
29. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 32 و 33.
30. المرنيسي، فاطمة، ما وراء الحجاب الجنس كهندسة اجتماعية، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 4، 2005، ص 93.
31. عليوي الكيم، حوراء عزيز، الأنساق الثقافي في رواية الكافرة للروائي علي بدر، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد 1، العدد 3، 2020م، ص 199.
32. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 25.
33. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 64.
34. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 66.
35. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 26.
36. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 39 و 40.
37. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 39.
38. زفزاف، محمد، المصدر السابق، 25.
39. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 33.
40. عليوي الكيم، حوراء عزيز، المصدر السابق، ص 202.
41. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 44.

42. نصيرة، بن عليّة، قبي الرّيم، السخرية والتّهمك في الخطاب الروائيّ الجزائريّ "سيد الخراب" لكمال قرور أنموذجاً، رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف المسيلة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربيّة وآدابها، 2021م، ص 17.
43. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 32.
44. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 38.
45. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 38.
46. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 22.
47. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 80.
48. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 80 و 81.
49. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 83.
50. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 83.
51. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 84.
52. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 82.
53. عليوي الكيم، حوراء عزيز، المصدر السابق، 2020: ص 192.
54. عيسوي، عبد الرحمن، سيكولوجية الخرافة، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1983م، ص 14.
55. زكريا، فؤاد، التفكير العلمي، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة 96، مكتبة الأسرة، دط، 1996م، ص 59.
56. الخماش، سلوى وإبراهيم بدران، دراسات في العقلية العربيّة الخرافية، بيروت، دار الحقيقة، ط 3، 1988م، ص 14.
57. وطفة، علي أسعد، الجمود والتّحديد في العقلية العربيّة، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السوريّة، 2007م، ص 166.
58. رسولي، حجت، و سيمّة آقاجاني يزدآبادي، مظاهر الخرافة في المجتمع العربيّ: دراسة في روايات غادة السمان نموذجاً، مجلة الجمعية الإيرانيّة العربيّة وآدابها، العدد 20، 1390ش، ص 28.
59. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 40.
60. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 69.
61. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 69.
62. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 3.
63. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 79.
64. زفزاف، محمد، المصدر السابق، ص 75 و 76.